مجلة علوم اللغة العربية المجلد ٤، العدد ١٣، السنة ٢٠٢٦، الصفحات ٧٨-٩٧
ISSN: ٣٠٦٠-٥٥٨x ---- E-ISSN: ٣٠٦٠-٥٥٩٨ تاريخ الإرسال: ٢٠٢٦/٠٥/٨ - تاريخ القبول: ٢٠٢٦/٠٩/٢٦

An Analysis of Linguistic Functions in the Letters of Imam Ali (AS) in Light of Jakobson's Communication Model

Rasoul Ballavi
Professor of Arabic Language and Literature, shahid Chamran University of Ahvaz, Ahvaz, Iran
r.balavi@scu.ac.ir
Ali Hazabizadeh*
PhD's student in Department of Arabic Language and Literature, Shahid Chamran University of Ahvaz, Ahvaz, Iran
www.alihazabi١٩٩٢@gmail.com

Abstract

This study applies Roman Jakobson's communicative model to the letters of Imam Ali (AS), a foundational text in Arabic-Islamic prose. Jakobson's model comprises six components (addresser, addressee, message, context, code, contact) and six linguistic functions (expressive, conative, referential, phatic, metalingual, poetic). The study adopts an interdisciplinary methodology combining contextual reading with linguistic analysis to uncover the dominant functions, their relationship to rhetorical contexts, and their contribution to the aesthetic, emotional, pedagogical, and political dimensions of the letters. The results reveal that the six functions overlap and integrate rather than appearing in isolation, and that their distribution is closely tied to the addressee. When the Imam addresses a governor like Malik al-Ashtar, the conative and referential functions dominate. When he addresses a son like al-Hasan, the expressive and poetic functions prevail. When he addresses an opponent like Mu'awiya, the conative and phatic functions dominate. This distribution shapes the letters on four levels: aesthetic, emotional, pedagogical, and political. The study confirms the validity of Jakobson's model for analyzing Arabic prose texts of a religious nature and opens the door to future interdisciplinary studies.

Keywords: Communicative approach, Jakobson, linguistic functions, the epistles of Imam Ali (AS).

تحليل الوظائف اللغوية فی رسائل الإمام على (ع) في ضوء نموذج جاكبسون التواصلي

رسول بلاوي
أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد تشمران أهواز، أهواز، إيران
r.balavi@scu.ac.ir
علي حزابي زاده*
طالب دكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد تشمران أهواز، أهواز، إيران
www.alihazabi١٩٩٢@gmail.com

ملخص

يُعدّ نموذج رومان جاكبسون التواصلي من أبرز المقولات اللسانية في القرن العشرين، إذ تجاوز الطروحات السابقة التي اختزلت العملية التواصلية في عنصرين أو ثلاثة، ليصوغ بديلاً سداسياً يدمج مكونات التواصل الستة (المُصدِر، المُتلقّي، الخطاب، المحيط الدلالي، الشفرة، الوسيط) مع الوظائف اللغوية الست (التعبيرية، الإفهامية، المرجعية، الإنتباهية، الميتالسانية، الشعرية) في نسيج واحد. يقوم هذا البحث على تطبيق النموذج على رسائل الإمام علي (ع)، بوصفها نصاً مؤسساً في النثر العربي الإسلامي، تتقاطع فيه اللغة مع الفكر والتاريخ والعقيدة. ويعتمد البحث منهجاً بينياً تكاملياً يزاوج بين أدوات تحليل الخطاب التراثي ونظرية جاكبسون، عبر مرحلتين: قراءة سياقية لتحديد المقام الخطابي، ثم تحليل لغوي وفق الوظائف الست. ويهدف إلى الكشف عن الوظائف المهيمنة في الرسائل، وبيان العلاقة بين توزيعها والمقامات الخطابية، وإسهامها في البناء الجمالي والانفعالي وتوجيه المقاصد التربوية والسياسية. وقد أسفرت الدراسة عن نتائج، أبرزها أن الوظائف الست تتداخل وتتكامل ولا تظهر منعزلة، وأن توزيعها المهيمن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمخاطب؛ فحين يخاطب الإمام والياً كمالك الأشتر تهيمن الإفهامية والمرجعية، وحين يخاطب ابنه الإمام الحسن (ع) تهيمن التعبيرية والشعرية، وحين يخاطب خصماً كمعاوية تهيمن الإفهامية والانتباهية. وهذا التوزيع يُسهم في بناء الرسائل على أربعة مستويات: جمالي وانفعالي وتربوي وسياسي. وتؤكد الدراسة صلاحية نموذج جاكبسون لتحليل النصوص النثرية العربية ذات الطابع الديني، وتفتح الباب أمام دراسات بينية مستقبلية.

الكلمات المفتاحية: رسائل الإمام علي (ع)، التواصلية، جاكبسون، الوظائف اللغوية.

١. المقدمة

لم يُعدّ الدرس اللغوي المقارن للنصوص الأدبية قاصراً على رصد الظواهر الصرفية والنحوية، بل صار يتوخى الكشف عن الوظائف التواصلية التي تضطلع بها اللغة داخل سياقاتها الخطابية؛ وهو تحوّل يمنح هذا الحقل العلمي قيمة منهجية مضافة. وفي مقدمة النظريات اللسانية التي نظّمت هذا المسار تتبوأ نظرية رومان جاكبسون التواصلية مكانة بارزة، فهي تنطلق من تصور تحليلي يرصد العوامل الستة للخطاب — المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، والسياق، والرمز، والقناة — ويقرن كل عامل منها بوظيفة لغوية خاصة، بحيث تتشكل من مجموعها شبكة متكاملة تفسّر اشتغال اللغة داخل النص الفني (جاكوبسن، ١٩٨٨: ٣٥). وانطلاقاً من راهنية هذه النظرية في مقاربة الخطاب الأدبي، يسعى البحث الحالي إلى تطبيقها على رسائل الإمام علي (ع)، بغية دراستها دراسة بينية تكشف عن ثرائها اللغوي الذي يمتزج فيه الإرث القرآني الفصيح بالخطاب الوعظي وبالصراع الفكري والسياسي الحاد.

تُعدّ رسائل الإمام علي بن أبي طالب (ع) من أهم النصوص النثرية في التراث العربي الإسلامي، وقد جُمع كثير منها في نهج البلاغة وغيره من المصادر. وتتميز هذه الرسائل بتنوع مقاماتها؛ فمنها ما هو عهد سياسي كعهده إلى مالك الأشتر، ومنها ما هو رسالة تربوية كرسالته إلى الحسن (ع)، ومنها ما هو خطاب حربي أو وعظي أو احتجاجي. ويعكس هذا التنوع ثراءً لغوياً فريداً، إذ تتحول اللغة في رسائله إلى أداة للإقناع والتوجيه والتربية والمواجهة. وقد كتب الإمام علي (ع) هذه الرسائل في سياقات اجتماعية وثقافية وسياسية بالغة التعقيد، مما يجعلها مادة خصبة للتحليل التواصلي وفق نموذج جاكبسون.

وتكمن أهمية هذا البحث حيث يتجاوز الدراسات النقدية السائدة التي اقتصرت على الجوانب الموضوعاتية أو البلاغية أو التاريخية التي تناولت رسائل الإمام علي (ع) من منظور بلاغي أو وعظي بحت، إلى دراسة بينية ومقاربة لسانية تواصلية تكشف عن الآليات الدقيقة التي تشتغل بها اللغة لإنتاج التأثير الإقناعي والتربوي والوجداني. كما تسهم في إثراء المكتبة العربية بدراسة تطبيقية لنظرية جاكبسون على نص نثري عربي إسلامي، مما يفتح الباب أمام دراسات مقارنة وبينية مستقبلية بين نصوص مشابهة، ويمكّن الباحثين من أدوات منهجية أدق لتحليل خطاب التربية والدين في التراث العربي.

يهدف هذا البحث إلى دراسة بينية لتحليل الوظائف اللغوية المهيمنة في رسائل الإمام علي (ع) وفق نموذج جاكبسون التواصلي، للكشف عن العلاقة بين التحولات الوظيفية وتطور المقاصد الخطابية، وتجلّيات الأبعاد الجمالية والانفعالية في بنية الخطاب. ويتتبع البحث المقاطع اللغوية

المنتقاة من النصوص الأصلية ويصنفها وفق عوامل التواصل الستة. ويأتي اختيار رسائل الإمام علي (ع) على وجه الخصوص لما تتمتع به من مكانة في التراث الإسلامي، ولما تختزنه من قدرة فريدة على توظيف اللغة في خدمة أهداف إقناعية وعقائدية ووجدانية، وقد وقع اختيار هذه النصوص لمحاولة اختبار مدى صلاحية نموذج جاكبسون وكشف حدود مرونته في تحليل الخطاب العربي ذي الطابع الديني والتربوي، وذلك من خلال مقاربة مغايرة تتجاوز في تحليل النصوص ذات الطابع الديني. وتتجلى إشكالية هذا البحث في الإجابة عن السؤالين التاليين:

- ما العلاقة بين توزيع الوظائف اللغوية الست في رسائل الإمام علي (ع)، والسياقات الاجتماعية والثقافية للمخاطَبين؟
- كيف يُسهم التوزيع التبايني للوظائف المهيمنة في البناء الجمالي والانفعالي للرسائل وتوجيه المقاصد التربوية والسياسية، في ضوء تفاعل البنية اللغوية مع السياقات الاجتماعية والثقافية؟

١-١. خلفية البحث

يتوخى هذا البحث تحليل رسائل الإمام علي (ع) وبيان كيفية إسهام الدراسة البينية في التفاعل بين ذاتية الخطاب وبنيته الفنية في تعميق التأثير الخطابي وتقديم الموقف الإنساني والديني بأسلوب لغوي إبداعي؛ من هنا، تبرز الحاجة إلى دراسة رسائل الإمام علي (ع) في ضوء نموذج جاكبسون التواصلي دراسة بينية، للكشف عن الكيفية التي تسهم بها الوظائف اللغوية في بناء الأبعاد التربوية والنفسية والجمالية للنص، وهو ما لم تتناوله الدراسات السابقة بالتحليل الوظيفي التداولي. وإذ يستدعي ذلك وقفة نقدية مع ما كُتب حول الرسائل من قبل، فإنَّ استعراض تلك الدراسات يُعدُّ خطوة منهجية ضرورية؛ لتحديد مسار التحليل وتجنب التكرار، وتأكيداً للفجوة المعرفية التي يسعى هذا البحث إلى سدها.

بحث «بنية التعبير في رواية عازف الغيوم» لعبد العزيز حمادي وآخرين (١٤٠٠)، قام الباحثون بتحليل الحوار والسرد في الرواية وفق عناصر جاكبسون الستة، وأظهر توافقاً دقيقاً بينها وبين تقنيات الروائي، بما يعكس إحكام البناء اللغوي. وتكمن أهميته في توسيع مجال النظرية من الشعر إلى الرواية؛ لكن النقد يوجّه إليه الوقوع في التطابق الظاهري، وإهمال السياق الثقافي، وعدم معالجة حدود تطبيق نموذج قصصي على سرد ممتد

أما بحث «بنية الخطاب في قصة موسى والخضر في سورة الكهف؛ دراسة تحليلية على ضوء نظرية التواصل عند جاكبسون» للباحثة دانا طالب پور (١٤٠٣)، فقد ركّز على تحليل عناصر التواصل

ووظائفها الست في القصة القرآنية، وقدّم تفسيراً جديداً للآيات في ضوء النظرية، وخلص إلى أن التواصل ثنائي الاتجاه كان أكثر وضوحاً، بما يعكس أهمية الوظيفة الإفهامية في هذا السياق.

بلاوي وحزابي‌زاده (١٤٠٤) فقد تناولا في مقالٍ بعنوان «تداولية الحدث الكلامي في الخطب الحربية للإمام علي (ع) على ضوء نظرية سيرل»، دراسةَ الأنماط الفعلية لخطاب الإمام علي (ع) العسكري استناداً إلى نظرية الأفعال الكلامية الخماسية لجون سيرل، وحدّدا وظائفه اللغوية. وقد وفّر هذا البحث، من خلال تقديم مقولاتٍ مثل الأفعال الإظهارية، والترغيبية، والالتزامية، والعاطفية، والإعلانية، أرضيةً تطبيقيةً لمواءمة تعاليم الإمام علي (ع) مع الظروف الإدارية والسياسية المعاصرة.

كما تناول جمشيدي وپروانه‌زاد (١٣٩٩) في مقالٍ بعنوان «بازتاب انديشه ومنش سياسي امام علي عليه السلام در آيينه خطبه شقشقيه» (انعكاس فكر الإمام علي (ع) ونهجه السياسي في خطبة الشقشقية)، دراسةَ العلاقة بين خطبة الشقشقية وكلية التراث الثقافي للإسلام في قالب المعرفة السياسية للإمامة والولاية، وأظهر أهميتها في عكس التحولات السياسية والاجتماعية للمجتمع بعد النبي (ص). وقد وفّر هذا البحث، من خلال تقديم مفاهيمَ مثل «السياسة المتعالية» و«صيانة الذات»، استناداً إلى تعاليم شلايرماخر، أرضيةً تحليليةً لتبيين الموقع العيشي الديني-السياسي لقائل خطبة الشقشقية والظروف السياقية للنص.

وبعد البحث والتنقيب في العديد من المصادر المعتبرة وقواعد البيانات الإلكترونية، تبين أنّه لا يوجد بحثٌ سابقٌ يتناسب مع هذه الدراسة؛ وهو أمرٌ يمنح هذا البحث فرصةً لسدّ هذا الفراغ وتقديم قراءةٍ جديدةٍ للنص. والبحث الحاضر هو المحاولة الأولى التي تستعين بالنموذج الكامل لسيميائية النصّ عند مايكل ريفاتير (بما يشمل القراءتين الاستكشافية والسيميائية وجميع مكوّناتهما)، لتحليل خطب نهج‌البلاغة ودراستها، ساعياً إلى الكشف عن الطبقات الدلالية الخفية، والوصول إلى النواة المركزية والماتريس الحاكم عليها. وهذا الفراغ البحثي كان الدافع الرئيس لكتابة المقال الحاضر.

٢. الإطار النظري

تُعدّ نظرية رومان جاكبسون من أبرز المقولات اللسانية التي أثرت في القرن العشرين. وقد تشكّلت هذه النظرية في سياق التحولات التي عرفها الدرس اللغوي على يد فرديناند دو سوسور، وفي إطار حلقة براغ اللسانية التي كان جاكبسون أحد أعمدة تأسيسها. وقد أعلن جاكبسون نظريته أول مرة في مقالته الشهيرة «اللسانيات والشعرية» سنة ١٩٥٨ في مؤتمر حول أساليب الشعر بجامعة إنديانا، ثم أعاد نشرها في كتابه «مقالات في اللغة العامة». وتستمد هذه النظرية قيمتها من كونها

تجاوزت الطروحات التواصلية السابقة التي كانت تختزل العملية التواصلية في عنصرين أو ثلاثة، لتصوغ بديلاً سداسياً يدمج مكونات التواصل ووظائف اللغة في نسيج واحد.

ويعتقد جاكبسون أن كل حدث تواصلي — سواء أكان حواراً عادياً، أم خطاباً سياسياً، أم نصاً أدبياً — لا بد أن يستند إلى ستة أركان جوهرية، يمكن عرضها على النحو الآتي:

أولاً: المُصدِر وهو الشخص أو الجهة التي تبدأ عملية التواصل وتطلق الخطاب؛ فهو الطرف الأول والأساسي في العملية التواصلية، ومنبعها، والمسؤول عن إرسالها (الطبال بركة، ١٩٩٣: ٦٦). ويحمل في وعيه قصداً أو غاية يسعى إلى بلوغها بلغته. وقد يكون المُصدِر فرداً واحداً أو جماعة، حاضراً في الموقف التواصلية أو غائباً يتجسد في نصه.

ثانياً: المُتلقّي وهو الطرف الذي يتوجه إليه الخطاب، وقد يكون شخصاً محدداً أو جمهوراً عريضاً؛ فهو المستجيب والفاهم والمخاطب والسامع والقارئ (مبارك، ١٩٩٩: ٢٠). وقد يكون حاضراً يتفاعل مع المُصدِر، أو غائباً يقرأ النص لاحقاً. وتتحدد فاعلية العملية التواصلية بمدى قدرة المُصدِر على استيعاب خصائص مُتلقّيه: معارفه السابقة، وقناعاته، وميوله.

ثالثاً: الخطاب وهو المضمون اللغوي المنتقل من المُصدِر إلى المُتلقّي، والنص الخاضع للتحليل. وقد يكون الخطاب فكرة أو مادة، ويتألف من أصوات وتراكيب وألوان (نهر، ٢٠٠٣: ٣٢). وليس الخطاب مجموعة كلمات متراصة، بل بناء لغوي منظم يحمل دلالات متعددة بحسب سياقه.

رابعاً: المحيط الدلالي وهو الإطار المرجعي الذي يُفهم الخطاب في ضوئه، ويشمل العالم الخارجي الذي يحيل إليه الخطاب: واقعاً مادياً، أو حدثاً تاريخياً، أو حالة نفسية، أو سياقاً ثقافياً. ويشترط أن يكون مقبولاً لدى طرفي الإرسال: المتكلم عارف بكلامه قاصد له، والمُتلقّي فاهم وعارف بالخطاب (مؤمن، ٢٠٠٥: ١١٧). ووظيفة المحيط الدلالي الأساسية جعل الخطاب مفهوماً وقابلاً للإحالة إلى معانٍ مشتركة بين المُصدِر والمُتلقّي.

خامساً: الشفرة وهي النظام اللغوي أو شبه اللغوي المشترك بين المُصدِر والمُتلقّي (جاكبسون، ١٩٨٨: ٤٨). وتمثل الشفرة القواعد المنظمة واللهجات والأنماط الأسلوبية والاصطلاحات الخاصة بمجال معين؛ فإذا انعدمت الشفرة المشتركة، استحال فهم الخطاب تماماً.

سادساً: الوسيط وهو السند المادي الذي يعبر عبره الخطاب: صوت في الحوار المباشر، ورق في الكتابة، شاشة في الخطاب الإعلامي. وتتباين طبيعة الوسيط بتباين نوعية التواصل (الغزالي، ٢٠٠٣: ٢٥).

ويكمن الابتكار النظري لدى جاكبسون في أنه لم يقتصر على تعيين هذه المكونات الستة، بل عطف على كل مكون مهمة لسانية بعينها؛ فإذا تصدّر مكون معين في النص المُبلَّغ، كانت الوظيفة المقابلة له هي المتحكمة في طبيعة التخاطب. وقد طرح جاكبسون ست مهام لسانية هي: الوظيفة التعبيرية، والوظيفة الإفهامية، والوظيفة المرجعية، والوظيفة الانتباهية، والوظيفة الميتالسانية، والوظيفة الشعرية (الطبال بركه، ١٩٩٣: ١٠١).

الوظيفة التعبيرية: تنصبّ على المُصدِر، وتُظهر حالته الذاتية وهيجانه ومشاعره إزاء ما ينطق به. وتبرز هذه الوظيفة في الهتافات وفي صيغ الاندهاش وألفاظ التشديد والانفعال، وفي تحوّل نغمة الصوت أو النبض الوجداني؛ ومن شواهدها قول القائل: وا أسفاه على ما فات، حيث يطغى هنا الإفصاح عن الكآبة الباطنية على إبلاغ معطيات موضوعية عن العالم الخارجي. فالتوجه في هذه الوظيفة يكون نحو المُصدِر للتعبير عن حالته ومشاعره، سواء أكان يشعر بها فعلاً أم يتصنّعها (فالر، ١٣٦٩: ٥٦). وفي النصوص الإبداعية، تبلغ هذه الوظيفة أوجها في الغزل والرثاء والمناجاة الدرامية التي تُظهر دفائن النفس الإنسانية.

الوظيفة الإفهامية: تنصبّ على المُتلقّي، وتتمثل في مسعى التأثير فيه وتقويم سلوكه أو تبديل مسلّماته؛ وتفصح هذه الوظيفة عن القيمة التداولية للنص المُبلَّغ، وتخص الطرف الآخر وهو المُتلقّي (الشهري، ٢٠٠٤: ٤٥). وتتحقق غالباً بواسطة صيغ الأمر والنهي، والاستفهام الموجّه، وأساليب النداء والتنبيه والإغراء. ومن شواهدها: أقبل يا صديقي إلى الخير، أو إحذر أن تقترب من هذا المكان، أو ألا تفكر في عاقبة أمرك؟ وفي الإعلانات والخطب السياسية والوعظ الديني، تكون هذه الوظيفة هي الأكثر تصدراً؛ لأن الغاية الأساسية تبديل سلوك المتلقي أو تعزيز موقف معين لديه.

الوظيفة المرجعية: تنصبّ على المحيط الدلالي، وتتمثل في إبلاغ المعطيات والوقائع عن العالم الخارجي أو عن الأحداث والأشياء. فاللغة في هذه الوظيفة تحيلنا على أشياء وكائنات نتحدث عنها، وتقوم فيها بوظيفة الشفرة إلى تلك الكائنات والأحداث المُبلَّغة (المسدي، ١٩٨٢: ١٥٩). وتتحقق في الجمل الخبرية، والأسماء المعرفة، وضمائر الغياب، والأفعال الماضية أو المضارعة التي تشير إلى وقائع ثابتة. ومن شواهدها: القاهرة عاصمة مصر، أو وقعت معركة كربلاء عام ٦١ للهجرة. وهي الوظيفة السائدة في المؤلفات العلمية والتقارير الإخبارية والأخبار اليومية؛ حيث تكون الغاية الأساسية وصف الواقع بدقة وموضوعية.

الوظيفة الشعرية: تنصبّ على النص المُبلَّغ نفسه، أي على هيئته اللغوية وأسلوبه وبنائه الداخلي، لا على مضمونه فحسب (جاكوبسن، ١٩٨٨: ٣٥). وتتحقق بواسطة توظيف الإيقاع، والوزن،

والقافية، والجناس، والطباق، والتصريع، والسجع، وغيرها من الصناعات البديعية والبلاغية (شفيعي كدكني، ١٣٦٨: ٩) التي تجعل النص المُبلَّغ مركزاً على ذاته بوصفه عملاً فنياً مستقلاً. وأوضح شاهد على ذلك هو الشعر، حيث نجد أن تبديل كلمة واحدة أو إعادة ترتيبها قد يفسد الوزن أو القافية أو الصورة الفنية.

الوظيفة الميتالسانية: تنصبّ على الشفرة، وتتمثل في استخدام اللغة لشرح اللغة أو التعليق عليها أو تعيين معانيها. ويركز المُصدِر عبر هذه الوظيفة على شرح المصطلحات والمفاهيم والشفرة المستعملة (الغزالي، ٢٠٠٣: ٥٠). وتتحقق في التعريفات اللغوية، والترجمات، وشرح المفردات الغامضة، والمناقشات حول دلالة كلمة أو تركيب معين. ومن شواهدها: كلمة الإباء تعني العزة والامتناع عن الذل، أو ما الذي تقصده بقولك «الحرية»؟ هل هي غياب القيود أم الالتزام بالقيم العليا؟ وتتصدر هذه الوظيفة بشكل كامل في النصوص التعليمية والمعاجم والتفاسير اللغوية.

الوظيفة الانتباهية: تنصبّ على الوسيط، وتتمثل في تأكيد استمرارية الاتصال وفتحه أو إغلاقه أو التأكد من صلاحيته. وتهتم هذه الوظيفة بالعناصر التي يستخدمها المتحدث لجذب انتباه المستمع وإبقائه في عملية التخاطب (زيان، ٢٠١٨: ١٢). وتتحقق في عبارات التمهيد والتحية والوداع، وفي أسئلة مثل: هل تسمعني؟، أهلاً بك، كيف حالك؟، التي لا تحمل في الغالب معطيات جوهرية عن العالم، بل تؤدي دوراً اجتماعياً وتواصلياً محضاً. ويؤكد جاكبسون على أن المهام الست لا تظهر في أي نص بشكل معزول أو منفرد، بل هي حاضرة معاً بدرجات متفاوتة، والحديث عن مهمة متصدرة لا يعني غياب المهام الأخرى، بل يعني أن إحداها تتصدر الأهمية في مقطع معين بينما تظل الأخرى ثانوية أو خلفية.

٣. الدراسة والتحليل

بعد استيفاء الإطار النظري لمفهوم التخاطب اللغوي ومكوناته، وبيان المهام اللغوية الست عند جاكبسون، ينتقل البحث إلى التطبيق على رسائل الإمام علي (ع) في ضوء هذه النظرية. وقد اختيرت هذه الرسائل لأنها نص مؤسس في النثر العربي الإسلامي، تتقاطع فيه اللغة مع الفكر والتاريخ والعقيدة، وتقدم خطاب الإمام بوصفه خطابًا حيًا يحمل قيمًا إنسانية كبرى. وفي القسم التحليلي، تُتخذ المهام اللغوية عدسة منهجية لقراءة بنية الخطاب، ثم تُشرح المهام وتُذكر النماذج المرتبطة بكل مهمة.

٣-١. تجليات الوظيفة التعبيرية في رسائل الإمام علي (ع)

هي تلك الوظيفة اللسانية التي تنصبّ على المُصدِر، وهي التي تحيل فيها اللغة إلى موقف المُصدِر من مختلف القضايا التي ينطق بها (منقور، ٢٠٠١: ٦٦). وتبرز هذه الوظيفة عبر علامات لسانية

كالاندهاش، والنداء، والتكرار الوجداني، واختيار المفردات المشحونة عاطفياً، وأساليب الاستفهام الإنكاري، مما يجعل اللغة مرآة تعكس الحالة النفسية للمُصدِر وتُشرك المُتلقّي عاطفياً في التجربة. وهذه الوظيفة هي التي سماها مارتينه الحديث مع النفس بقليل من البسط والتوسيع (صفوي، ١٣٩٤: ٣). ونرى في رسائل الإمام علي (ع) هذه الوظيفة في رسالته إلى عثمان بن حنيف[١]:

أَمَّا بَعْدُ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ وتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ، ومَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُه مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَه عَلَيْكَ عِلْمُه فَالْفِظْه. (الرسائل/ ٤٥)

يُعدّ هذا المورد من أبرز النصوص التي تتجلى فيها الوظيفة التعبيرية في رسائل الإمام علي (ع)، إذ ينطق الخطاب بأسلوب العتاب المباشر الموجّه إلى عامله عثمان بن حنيف. والملاحظ أن المتكلم لا يقف عند حدود الإخبار بحادثة الدعوة، بل يتخذ منها منطلقاً للتعبير عن خيبة أمل عميقة. فاللغة هنا مرآة تعكس الحالة النفسية للمُصدِر، وتكشف عن انفعالاته تجاه سلوك واليه. ولمّا كانت الوظيفة التعبيرية تتمركز حول المُصدِر، فإن هذا النص يقدم نموذجاً دالاً على ذلك؛ إذ يتحول الخطاب من مجرد نقل خبر إلى وسيلة للتعبير عن موقف أخلاقي غاضب. ويعزز هذا البعد التعبيري التصوير المزدوج الذي يقابل فيه الإمام بين صورة الفقير المطرود والغني المدعو، وهو تقابل لا يقتصر على وصف الواقع، بل يحمل شحنة انفعالية واضحة. فاللغة هنا لا تصف فحسب، بل تُدين وتُعبّر عن اشمئزاز المتكلم من هذا المشهد الاجتماعي المنحرف. وبهذا تتجلى الوظيفة التعبيرية في أقصى صورها، حيث يصبح الخطاب كشفاً لموقف الإمام الذاتي من قضايا العدالة الاجتماعية، وإشراكاً للمتلقي عاطفياً في تجربته الوجدانية.

وتستمر الوظيفة التعبيرية في هذا المورد عبر التوجيه المشحون بالمسؤولية الأخلاقية، حيث ينتقل الإمام من العتاب إلى التحذير المباشر. فاللغة هنا لا تكتفي بوصف الحال، بل تنتقل إلى مستوى أعلى من التعبير عن الموقف الذاتي من الزهد والتقشف. ويُظهر اختيار المفردات الحادة أن المتكلم يعبر عن انفعاله لا عن تعليمات إدارية مجردة. فالوظيفة التعبيرية تتحقق في هذا الانتقال من الإخبار إلى التحذير، ومن الوصف إلى التعبير عن الموقف. وتتجلى الرؤية التعبيرية أيضاً في تصوير الإمام نفسه بأنه اكتفى من دنياه بالقليل، وهو تصوير يحمل دلالة ذاتية عميقة. فالإمام لا يقدم

[١] عثمان بن حنيف، بضمّ الحاء، ابن واهب بن الحكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاري الأوسي أخو سهل بن حنيف أحد الأمجاد من الأنصار، أخذ من النبيّ صلّى الله عليه و آله العلم و التربية و بلغ الدرجة العالية فنال مناصب كبرى، قال في الشرح المعتزلي: «عمل لعمر ثمّ لعليّ و ولّاه عمر مساحة الأرض و جبايتها بالعراق، و ضرب الخراج و الجزية على أهلها، و ولّاه عليّ عليه السّلام على البصرة، فأخرجه طلحة و الزبير منها حين قدماها» (الخوئي، ١٤٠٠هـ، ج٢٠: ٩٠)

هنا برنامجاً سياسياً، بل يعبر عن هوية اختارها لنفسه، في مقابل ما انزلق إليه واليه. وهكذا تبلغ الوظيفة التعبيرية ذروتها في هذا التصوير الذاتي، حيث تصبح اللغة وسيلة لكشف الهوية الأخلاقية للمتكلم، وإشراك المتلقي في تجربته الوجدانية. فالخطاب هنا ليس مجرد رسالة إدارية، بل شهادة على موقف الإمام من الدنيا والزهد. وفي رسالة الإمام علي (ع) إلى ابنه الحسن (ع) نري مظاهر هذه الوظيفة أيضاً:

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا، إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصْبِ الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ. (الرسائل/ ٣١)

تُعدّ افتتاحية هذه الرسالة من أخصب النصوص دلالة على الوظيفة التعبيرية في رسائل الإمام علي (ع)، إذ تتضافر فيها عناصر التعبير الذاتي بصورها القصوى. فسلسلة الأوصاف التي يطلقها الإمام على نفسه ليست أوصافاً موضوعية، بل هي تعبير محض عن إحساسه بفنائه واقتراب أجله. واللغة هنا لا تنقل معلومات عن العالم الخارجي، بل تكشف عن موقف المتكلم من ذاته ومن الزمن. وهذا ما يجعل النص نموذجاً دالاً على الوظيفة التعبيرية التي تتمركز حول المُصدِر. ويتجلى الانفعال أكثر في ذم الإمام للدنيا وسكونه مساكن الموتى، وهو تعبير عن موقف وجداني راسخ تجاه زوال الحياة. فاختيار المفردات المشحونة يعكس حالة نفسية مضطربة، تشعر باقتراب الرحيل وتستعد له. واللغة هنا مرآة تعكس هذه الحالة، وتُشرك المتلقي عاطفياً في تجربة الإمام. وبهذا تتحقق الوظيفة التعبيرية في أقصى صورها، حيث يصبح الخطاب كشفاً عن الذات لا نقلاً للمعلومات. وفي المقابل، يكشف تصوير الحسن (ع) بالمولود المؤمل ما لا يدرك عن قلق أبوي عميق. فالإمام يعبر عن خوفه على ابنه من مصير سلفه، وهي حالة انفعالية تدفع الأب لكتابة وصيته قبل الرحيل. واللغة هنا على هيئة وصيةٍ من أب عطو مُحبٍ لابنه الذي يكنّ له أبوه محبةً بالغة. (مكارم الشيرازي، ١٣٨٤، ج٩: ٤٥٨) وهذا البُعد التعبيري يضيف إلى النص طبقة وجدانية أخرى، تجمع بين قلق الأب على ابنه وقلق الإنسان على مصيره. وسلسلة الأوصاف التي تلحق بالابن تنقل هشاشة الإنسان أمام تقلبات الزمن، وهي رؤية وجودية مأساوية. فالإمام يعبر عن موقفه من الحالة الإنسانية عموماً، حيث الإنسان أسير الموت والهموم والشهوات. والوظيفة التعبيرية تبلغ ذروتها في هذه السلسلة التي تجمع بين التعبير عن الذات والرؤية الكونية. فاللغة هنا مرآة لرؤية وجودية، ووسيلة لإشراك المتلقي في تجربة الإمام الوجدانية. ومن رسالة له لابن عباس:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ مَا وَلَّيْتُكَ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللهِ بِمَكَانِكَ الَّذِي بِهِ أَنْتَ. فَإِنْ أَخَذْتَ مَا آتَاكَ اللهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ فَأَنْتَ مُحْسِنٌ، وَإِنْ لَمْ تَأْخُذْ فَأَنْتَ مُحْسِنٌ. وَاعْلَمْ أَنَّ أَحْسَنَ مَا ادَّخَرْتَ لِنَفْسِكَ مِنْ بَعْدِكَ مَا لَا تَبْتَغِي بِهِ جَزَاءً وَلَا شُكْراً. (الرسائل/ ٢٢)

يُظهر هذا المورد الوظيفة التعبيرية عبر الأسلوب الوجداني الذي يخاطب به الإمام عامله. فالمتكلم لا يكتفي بتحديد العلاقة الإدارية، بل يعبر عن موقفه الأخلاقي من المال والسلطة. واللغة هنا ليست أداة إخبار، بل وسيلة للتعبير عن رؤية الإمام للزهد والعطاء. وهذا ما يجعل النص دالاً على الوظيفة التعبيرية التي تتمركز حول المُصدِر لا حول الموضوع الخارجي. ويتجلى الانفعال في تكرار عبارة «فَأَنْتَ مُحْسِنٌ» مرتين، وهي عبارة تحمل تعبيراً عن رضا الإمام الذاتي عن العامل إن أخذ المال أو تركه. فالإمام لا يفرض موقفاً، بل يعبر عن قبوله للخيارين معاً. وهذا التعبير يعكس مرونة الإمام وسماحته، لا مجرد نقل تعليمات إدارية. فالوظيفة التعبيرية تتحقق في هذا الخطاب الذي يزاوج بين التوجيه والتعبير عن الذات. ثم نرى أن الإمام في هذا الرسالة يوجه الخطاب نحو ما ينبغي أن يُدَّخر، حيث يتحدث كمعلم أخلاقي يعبر عن رؤيته للحياة والآخرة. فاختيار مفردات «أَحْسَنَ مَا ادَّخَرْتَ» يعكس موقفاً وجدانياً راسخاً تجاه قيمة العمل الصالح. واللغة هنا تنقل رؤية أخلاقية عميقة، وتُشرك المتلقي في تجربة الإمام الوجدانية. وسلسلة الأفعال «لَا تَبْتَغِي بِهِ جَزَاءً وَلَا شُكْراً» تعبر عن موقف الإمام من الإخلاص. فالوظيفة التعبيرية تتحقق في هذا الخطاب الذي يزاوج بين التوجيه والتعبير عن الذات. واللغة هنا ليست مجرد وسيلة لنقل تعليمات، بل وسيلة لكشف الهوية الأخلاقية للمتكلم، وإشراك المتلقي في تجربته الوجدانية. وهكذا تبلغ الوظيفة التعبيرية ذروتها في هذا التصوير الذاتي.

٣-٢. تجليات الوظيفة الإفهامية في رسائل الإمام علي (ع)

هي تلك الوظيفة اللسانية التي تتمركز حول الشفرة، وتهدف إلى شرح وتوضيح معاني الكلمات والمصطلحات عند حدوث غموض أو التباس. لذلك تندرج هذه الوظيفة ضمن الأساليب الإنشائية (جاكوبسن، ١٩٨٨: ٢٨٨). ومن شواهد هذه الوظيفة في رسائل الإمام علي (ع) رسالته إلى مالك الأشتر:

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ. يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ. (الرسائل: ٥٣)

يتجلى في هذا المورد نموذج واضح للوظيفة الإفهامية، إذ يوجه الإمام خطابه إلى مالك الأشتر بصيغ أمرية مباشرة تهدف إلى التأثير في سلوكه وتقويم ممارسته السياسية. فالمتكلم لا يكتفي بوصف الحال، بل يسعى إلى إفهام المخاطب وتوجيهه نحو الرحمة واللطف بالرعية. واللغة هنا أداة إقناعية بامتياز، تهدف إلى تغيير السلوك لا مجرد نقل المعلومة. وهذا ما يجعل النص دالاً على الوظيفة الإفهامية التي تتمركز حول المُتلقّي لا حول المُصدِر وتظهر هذه الوظيفة أيضاً في الاستدلال الوجداني الذي يقدمه الإمام، حيث يقابل بين ما ينبغي أن يفعله مالك مع رعيته وما يحب أن يفعله الله به. فالإمام يستدعي تجربة المخاطب الذاتية لتحفيزه على التسامح. واللغة هنا لا تكتفي بالأمر، بل تقدم حجة وجدانية تجعل المخاطب يقتنع بضرورة الرحمة. وبهذا تتحقق الوظيفة الإفهامية في أقصى صورها، حيث يصبح الخطاب أداة لتغيير القناعات والسلوك، وإشراك المخاطب في مسؤولية الحكم. يصنف الإمام الناسَ إلى صنفين: أخ في الدين أو نظير في الخلق. وهذا التصنيف ليس وصفاً موضوعياً فحسب، بل هو أداة إفهامية تهدف إلى تصحيح نظرة الوالي إلى رعيته. فاللغة هنا تسعى إلى إفهام المخاطب بأن الرعية ليست عبئاً، بل شركاء في الإنسانية والدين. وهذا التوجيه الإفهامي يهدف إلى بناء علاقة سليمة بين الحاكم والمحكوم. ويضاف إلى ذلك الإشارة إلى وقوع الزلل والعِلل من الرعية، وهي إشارة تهدف إلى إفهام الوالي بأن الخطأ طبيعة بشرية. فالإمام لا يطلب من مالك أن يتجاهل الأخطاء، بل أن يفهم طبيعتها البشرية. واللغة هنا أداة إفهامية تهدف إلى تصحيح التوقعات. وبهذا تتحقق الوظيفة الإفهامية في هذا الخطاب الذي يزاوج بين الأمر والإقناع، ويجعل من اللغة وسيلة لتغيير الممارسة السياسية. ومن رسالة له عليه السلام إلي معاوية:

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَ عُمَرَ وَ عُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ وَ لَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ؛ وَ إِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَ سَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًا، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَ وَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى؛ وَ لَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةُ لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى، فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ، وَ السَّلَام. (الرسائل/ ٦)

يوجه الإمام خطابه في هذا النص إلى معاوية بأسلوب حجاجي يهدف إلى إفهامه وإقناعه بشرعية خلافته. فالمتكلم لا يكتفي بالإخبار عن البيعة، بل يبني حجة متكاملة تقوم على مبدأ الشورى والممارسة التاريخية. واللغة هنا أداة إقناعية بامتياز، تسعى إلى التأثير في المخاطب وتغيير قناعاته. وهذا ما يجعل النص دالاً على الوظيفة الإفهامية التي تتمركز حول المُتلقّي. ثمّ يقدم الإمام استدلالاً تأريخياً، حيث يستشهد ببيعة أبي بكر وعمر وعثمان كأساس لشرعية بيعته. فالإمام لا يفرض رأيه، بل يستدعي ممارسة مقبولة لدى المخاطب ليستنتج منها نتيجة. واللغة هنا لا تكتفي بالأمر، بل تقدم

حجة عقلية وتاريخية. وبهذا تتحقق الوظيفة الإفهامية في أقصى صورها، حيث يصبح الخطاب أداة لتغيير القناعة السياسية. ثم ينتقل الإمام من الحجة العامة إلى الرد على تهمة محددة، حيث يخاطب الإمام معاوية مباشرة ليبين براءته من دم عثمان. فالمتكلم ينتقل من مستوى المبدأ إلى مستوى الدفاع عن الذات، مستخدماً أسلوب القسم والتحدي. واللغة هنا أداة إفهامية تهدف إلى إبطال دعوى الخصم وإثبات بطلانها. ويضاف إلى ذلك الأسلوب الشرطي الذي يستخدمه الإمام لتحفيز المخاطب على التفكير بعقله لا بهواه. فالإمام يضع معاوية أمام خيار: إما استخدام العقل والوصول إلى الحقيقة، أو اتباع الهوى والبقاء في الضلال. واللغة هنا أداة إفهامية تحمل جانباً أخلاقياً. وبهذا تتحقق الوظيفة الإفهامية في هذا الخطاب الذي يزاوج بين الحجة والتحدي، ويجعل من اللغة وسيلة لتصحيح الموقف السياسي وإثبات البراءة.

٣-٣. تجليات الوظيفة المرجعية في رسائل الإمام علي (ع)

تلك الوظيفة اللسانية التي تُعنى بنقل المعطيات والوقائع والأحداث والأفكار المرتبطة بالمحيط الدلالي والموضوع الخارجي، وتتميز هذه الوظيفة بالحياد والوضوح، باعتبار أن اللغة فيها تحيلنا على أشياء وكائنات نتحدث عنها، وتقوم فيها بوظيفة الشفرة إلى تلك الكائنات والأحداث المُبلَّغة (المسدي، ١٩٨٢: ١٥٩)؛ يقول الإمام علي (ع):

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحْبَبْتُ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، وَأَرَدْتُ لَكَ مَا أُرِيدُ لِنَفْسِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا بِي إِلَيْكَ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالْمَحَبَّةِ لَمْ يَكُنْ لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْلِبَ إِلَيْكَ خَيْراً، أَوْ أَصْرِفَ عَنْكَ سُوءاً، بَلْ لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ فِي مَقَامٍ لَا تُنَالُهُ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَلَا تُدْرَكُ إِلَّا بِالْجِدِّ. (الرسائل/ ٣١)

ينقل الإمام في هذه الرسالة إلى ابنه معلومات محددة عن موقفه الأبوي وطبيعة علاقته به. فالمتكلم يخبر مخاطبه بحقيقة ثابتة: أنه أحب له ما أحب لنفسه، وأراد له ما يريد لنفسه. واللغة هنا أداة إخبارية تنقل معلومة عن العلاقة الأبوية، لا مجرد تعبير عاطفي. وهذا ما يجعل النص دالاً على الوظيفة المرجعية التي تتمركز حول السياق الخارجي. ومايؤكدهذه الدلالة المرجية، هي الإشارة إلى الشفقة والمحبة كدافع للخطاب. فالإمام يخبر ابنه بأن ما يدفعه إلى الوصية ليس مجرد رغبة في جلب خير أو دفع سوء، بل حقيقة أعمق. واللغة هنا تنقل معلومة عن دوافع المتكلم، وهي معلومة مرجعية تحيل إلى واقع نفسي وعلائقي محدد. وبهذا تتحقق الوظيفة المرجعية في هذا الخطاب الذي ينقل معلومات عن العلاقة بين الأب والابن. ثم يستمر الإمام في الإخبار عن الهدف الذي يريده لابنه، حيث يبين أن غايته أن يكون الحسن في مقام لا يُنال إلا بالعمل والجد. فالإمام لا يكتفي بالتعبير عن مشاعره، بل ينقل معلومة عن رؤيته للمكانة والوصول إليها. واللغة هنا أداة إخبارية تنقل حقيقة ثابتة عن طريق التميز. ويضاف إلى ذلك الإشارة إلى أن الشفقة والمحبة لم تكن مجرد عاطفة

عابرة، بل كانت دافعاً لنقل حقيقة موضوعية. فالإمام يخبر ابنه بأن ما يريده له هو ما يريده لنفسه، وهذا خبر عن معيار ثابت. واللغة هنا تنقل معلومة مرجعية عن العلاقة بين الأب والابن. وبهذا تتحقق الوظيفة المرجعية في هذا الخطاب الذي ينقل معلومات واضحة عن العلاقة والهدف. ومن رسالة له (ع) إلى أهل الأمصار:

وَ أَمَّا قَوْلُكَ إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ، أَلَا وَ مَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ وَ مَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ (الرسائل/ ٥٨)

ينقل الإمام علي (ع) في هذه الرسالة إلى مخاطبيه معلومة عن واقع الحرب وما أحدثته في العرب. فالمتكلم لا يعبّر هنا عن انفعالاته الذاتية تجاه الحرب، ولا يوجّه أمراً مباشراً إلى المخاطب، بل يقرّر حقيقة واقعة: أن الحرب قد أنهكت العرب ولم يبقَ منهم إلا بقايا أنفاس. واللغة هنا أداة إخبارية تنقل وصفاً لحالة خارجية، لا وسيلة للتعبير عن الذات. ويعزز هذا الجانب التقريري استخدام صيغة الخبر في نقل كلام المخاطب، ثم في التقرير العام الذي يعقبه. فالإمام لا يردّ على الخصم بخطاب انفعالي، بل يثبّت واقعاً ثم يبني عليه حكماً عاماً. واللغة هنا تحيل إلى أحداث وأشياء خارج النص: الحرب، العرب، الجنّة، النار. ثم يقدم الإمام علي (ع) تصنيف مصيرى: من أكلته الحرب في سبيل الحق فمصيره الجنّة، ومن أكلته في سبيل الباطل فمصيره النار. وهذا التصنيف ليس مجرد حكم أخلاقي مجرّد، بل إحالة إلى نظامين متقابلين يتوزّع عليهما البشر بحسب موقعهم من الحق والباطل. واللغة هنا أداة تصنيف مرجعي يربط بين واقع الفعل ومصيره النهائي. ويضاف إلى ذلك أن الطباق بين «الحق» و«الباطل» وبين «الجنّة» و«النار» يمنح النص بعداً تقريرياً-تصنيفياً: الإمام لا يكتفي بالإخبار عن مآل الحرب، بل يصنّف نتائجها في نظام عقيدي واضح. واللغة هنا تحيل إلى عالم غيبي بقدر ما تحيل إلى واقع حسي. وهكذا تتحقق الوظيفة المرجعية في هذا الخطاب الذي يقرّر واقعاً ويصنّف مصائر في آنٍ واحد.

٣-٤. تجليات الوظيفة الشعرية في رسائل الإمام علي (ع)

هي الوظيفة اللسانية التي تنصبّ على النص المُبلَّغ نفسه، وتجعل من هيئة اللغة وصياغتها الجمالية محور الاهتمام الأساسي، بدلاً من المضمون الإخباري فقط. وتبرز هذه الوظيفة بقوة في الشعر والنصوص الإبداعية، إذ إنها الوظيفة الجمالية بامتياز، إذ إن المرجع في الفنون هو النص المُبلَّغ الذي يكفّ عن أن يكون أداة اتصال ليصير هدفه (غيرو، ١٩٨٤: ١٢). ومن شواهد ذلك في رسائل الإمام علي (ع):

وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِك بَخِيلاً يَعْدِلُ بِك عَنِ الْفَضْلِ وَ يَعِدُك الْفَقْرَ، وَلاَ جَبَاناً يُضْعِفُك عَنِ الأُمُورِ، وَلاَ حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَك الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ؛ فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى، يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ. (الرسائل/ ٥٣)

يبني الإمام خطابه هنا على التوازي البلاغي في تعداد الصفات. فالعبارات تتوالى بإيقاع منتظم، حيث تتبع كل صفة أختها في بنية متوازنة. واللغة هنا لا تنقل معلومات فحسب، بل تبني بناءً فنياً قائماً على التوازي. وهذا ما يجعل النص دالاً على الوظيفة الشعرية التي تتمركز حول الرسالة ذاتها؛ ثم إن الخاتمة البلاغية التي تربط بين الصفات الثلاث، تدعم هذا المحور الجمالي، حيث يجمعها الإمام في سبب واحد. فالإمام لا يكتفي بتعداد الصفات، بل يصوغها في قالب فني يجعلها أكثر تأثيراً. واللغة هنا أداة جمالية تحول التعداد إلى وحدة فنية. وبهذا تتحقق الوظيفة الشعرية في هذا الخطاب الذي يجعل من الشكل الفني جزءاً من الرسالة. ثم نرى في هذا النص، التوازي الصفاتي الذي يميز توجيه الإمام نحو أفضل الأمور. فالعبارات تتوالى بإيقاع منتظم، حيث تتبع كل صفة أختها في بنية متوازنة. واللغة هنا لا تكتفي بنقل المعنى، بل تبني إيقاعاً داخلياً يجعل النص مؤثراً في السمع والذاكرة. ويضاف إلى ذلك اختيار المفردات المتوازنة التي تجعل من العبارة قابلة للحفظ والتذكر. فالإمام لا يقدم توجيهاً مباشراً، بل يصوغه في قالب فني يجعل المعنى أكثر تأثيراً. واللغة هنا أداة جمالية تحول التوجيه إلى قطعة أدبية. وبهذا تتحقق الوظيفة الشعرية في هذا الخطاب الذي يزاوج بين المعنى والصورة، ويجعل من الشكل الفني جزءاً من الرسالة. ومن رسالة له (ع) إلى سلمان الفارسي:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ، لَيِّنٌ مَسُّهَا قَاتِلٌ سُمُّهَا؛ فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا، وَ ضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَ تَصَرُّفِ حَالاتِهَا؛ وَ كُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ، أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيحَاشٍ؛ وَ السَّلَام. (الرسائل/ ٦٨)

نشاهد في هذه الرسالة أن الإمام يبني خطابه على صورة فنية مركزية تجعل من الدنيا حيةً لين مسها قاتل سمها. فالمتكلم لا يكتفي بنقل معلومة عن الدنيا، بل يصوغها في قالب تمثيلي يجمع بين الإغراء والتحذير. واللغة هنا أداة جمالية بامتياز، تجعل من الشكل الفني محور الاهتمام، لا المضمون الإخباري وحده. وهذا ما يجعل النص دالاً على الوظيفة الشعرية التي تتمركز حول الرسالة ذاتها. ويُقوّي هذا البعد الصوري التوازي البلاغي الذي يقابل بين «لَيِّنٌ مَسُّهَا» و«قَاتِلٌ سُمُّهَا»، وهو توازٍ يخلق إيقاعاً منتظماً يجعل العبارة قابلة للحفظ والتذكر. فالإمام لا يقدم وصفاً مباشراً، بل يبني صورة فنية متوازنة تجعل المعنى أكثر تأثيراً. واللغة هنا أداة جمالية تحول الفكرة إلى صورة، والموعظة إلى قطعة أدبية مستقلة. وبهذا تتحقق الوظيفة الشعرية في أقصى صورها. ثم

يستخدم الإمام صنعة الطباق الذي يقابل بين «آنَسَ» و«أَحْذَر»، وبين «سُرُور» و«مَحْذُور»، وبين «إيناس» و«إيحاش». فالمتكلم لا يكتفي بصورة واحدة، بل يبني سلسلة من التقابلات الفنية التي تعمق المعنى وتثري الإيقاع. واللغة هنا أداة جمالية تبني نسيجاً فنياً متماسكاً، وتجعل من النص قطعة أدبية قائمة بذاتها. ويضاف إلى ذلك السجع الذي يميز خواتم العبارات، حيث تتناسق الفواصل في إيقاع منتظم. فالإمام لا ينقل المعنى فحسب، بل يصوغه في قالب فني يجعل النص مؤثراً في السمع والذاكرة. واللغة هنا أداة جمالية تحول الموعظة إلى عمل فني مستقل، حيث يصبح الشكل جزءاً من الرسالة لا وعاءً لها. وبهذا تتحقق الوظيفة الشعرية في هذا الخطاب الذي يزاوج بين الصورة والإيقاع، ويجعل من اللغة وسيلة للبناء الجمالي.

٣-٥. تجليات الوظيفة الميتالغوية في رسائل الإمام علي (ع)

هي تلك الوظيفة التي تنصبّ على الشفرة اللسانية نفسها، وتتمحور هذه الوظيفة حول اللغة ذاتها وأُطلق عليها «اللغة الواصفة»، وفيها تم تمييز مجال تمثله اللغة الواصفة التي تعتمد غالباً في الدراسة العلمية (الغزالي، ٢٠٠٣: ٥٠)؛ وتتحقق هذه الوظيفة في التعريفات اللغوية، والترجمات، وشرح المفردات الغامضة، والمناقشات حول دلالة كلمة أو تركيب معين. ومن كتاب له أرسله إلى الحارث الهمذاني:

فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُه مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَه عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْه، ومَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِه فَنَلْ مِنْه. (الرسائل/ ٦٩)

يستخدم الإمام في هذه الرسالة اللغة لتعيين قاعدة استعمال وتحديد معيار دلالي يميز به المخاطب بين ما يستهلك وما يترك. فالمتكلم لا يكتفي بإصدار أمر مباشر، بل يقدّم تعريفاً إجرائياً: ما اشتبه علمه يلفظ، وما أيقن بطيبه يتناول. واللغة هنا لا تنقل معلومة عن العالم الخارجي، بل تضع قاعدة للاستعمال وتوضح دلالة المطابقة بين اليقين والطيب. وهذا ما يجعل النص دالاً على الوظيفة الميتالغوية التي تتمركز حول الشفرة اللغوية ذاتها. ويعزز هذا البُعد التعريفي استخدام الإمام لصيغة الشرط التي تبني معادلة دلالية: «مَا اشْتَبَهَ... فَالْفِظْهُ» و«مَا أَيقَنْتَ... فَنَلْ مِنْهُ». فالإمام يعلّم المخاطب كيف يصدر حكماً عليه. واللغة هنا أداة تفسيرية تحدد شروط الصدق واليقين، لا شروط المادة. وبهذا تتحقق الوظيفة الميتالغوية في أقصى صورها، حيث تصبح اللغة وسيلة لضبط الاستعمال وتوضيح قواعد التمييز. ثم ينظم الإمام العلاقة بين العلم واليقين من جهة، والاستعمال من جهة أخرى. فالإمام لا يطلب من المخاطب أن يمتنع عن كل طعام، بل يضع حداً فاصلاً بين المشتبه والمتيقّن. وهذا الحد نفسه تعريف لغوي: تحديد دلالة «الاشتباه» مقابل «اليقين». واللغة هنا أداة تنظيمية تحدد مجال الاستعمال المشروع من غير المشروع، لا وصفاً للواقع الخارجي.

ويضاف إلى ذلك أن الإمام يستخدم أفعالاً إجرائية («فَالْفِظْهُ» و«فَنَلْ مِنْهُ») لا لوصف حدث، بل لإحداث فعل. وهذا ما يمنح النص بعداً تداولياً-ميتالغوياً: اللغة لا تصف فقط، بل تُنظّم. واللغة هنا أداة تفسيرية تحوّل المعرفة إلى معيار عملي. وبهذا تتحقق الوظيفة الميتالغوية في هذا الخطاب الذي يزاوج بين التعريف والتنظيم، ويجعل من اللغة وسيلة لضبط الاستعمال وتوضيح قواعد التمييز.

٣-٦. تجليات الوظيفة الانتباهية في رسائل الإمام علي (ع)

هي تلك الوظيفة اللسانية التي تنصبّ على وسيط الاتصال، وتهدف إلى فتح التخاطب أو الحفاظ عليه أو اختبار مدى سلامته أو إنهائه، دون أن تحمل بالضرورة مضموناً إخبارياً جوهرياً. ويقول الزياتي أيضاً في هذه الوظيفة إنها عبارات شبه مفرغة من مدلولها الحرفي وتُستعمل لذلك مجرد وسائل لغوية (الزياتي، ٢٠٠٨: ٣٠). وبالنسبة لرسائل الإمام علي (ع) نرى أن هذه الوظيفة يمكن تطبيقها على بعض من نصوص هذه الرسائل مثل رسالة الإمام (ع) إلي مالك الأشتر:

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرِ، فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ (الرسائل/ ٥٣)

يتجلى في هذا المورد نموذج واضح للوظيفة الانتباهية، إذ تفتتح الرسالة بعبارة تمهيدية تحدد أطراف التواصل وتفتح قناة الاتصال بين الإمام ومالك الأشتر. فالمتكلم لا يبدأ بمضمون الرسالة مباشرة، بل يقدم تمهيداً يعرّف فيه بنفسه وبالمخاطب وبموضوع الرسالة. واللغة هنا لا تحمل محتوى إخبارياً جوهرياً، بل تؤدي وظيفة تنظيمية محضة. وهذا ما يجعل النص دالاً على الوظيفة الانتباهية التي تتمركز حول قناة الاتصال. ومايوَطّد هذا البُعد التنظيمي ذكر اسم الإمام وصفته واسم المخاطب، وهي عناصر تهدف إلى فتح قناة التواصل وتحديد الأطراف. فالإمام لا يفترض أن مالك يعرف من المرسل، بل يذكره صراحة. واللغة هنا أداة لفتح الاتصال وتأكيد استمراريته. وبهذا تتحقق الوظيفة الانتباهية في أقصى صورها، حيث تصبح اللغة وسيلة لتنظيم التواصل لا لنقل المعلومات. ومن رسالة الإمام علي (ع) إلى الحسن (ع):

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ وَ عِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَ الْمُقَارَبَةِ وَ عِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ وَ عِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ وَ عِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ وَ عِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ وَ كَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ وَ إِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ (الرسائل/ ٣١)

يوجّه الإمام (ع) في هذا النص خطابه إلى ابنه الحسن (ع) بسلسلة من الأوامر التى تهدف إلى تقويم سلوكه وتوجيهه نحو النموذج الأخلاقى والاجتماعى الذى يريده له. فالمتكلم لا يكتفي بوصف الفضائل، بل يدخل في صميم السلوك العملي ويضع قواعد دقيقة للتعامل مع الأخ عند الصرم والصدود والجمود والتباعد والشدة والجرم. واللغة هنا أداة إقناعية بامتياز، تسعى إلى تغيير السلوك لا مجرد نقل المعلومة. وهذا ما يجعل النص دالاً على الوظيفة الإفهامية التى تتمركز حول المُتلقّي لا حول المُصدِر. كما يُشاهد في هذا المقطع من كلام الإمام علي (ع) فإنه يبني النص على صيغة المقابلة بين حالة الأخ السيئة وسلوك المخاطب الحسن:

عند الصدود ⟵ اللطف عند الشدة ⟵ اللين عند التباعد ⟵ الدنو

عند الصرم ⟵ الصلة عند الجمود ⟵ البذل عند الجرم ⟵ العذر

هذا البناء ليس وصفاً نظرياً، بل برنامج عمل يهدف إلى تغيير سلوك المخاطب في كل حالة. والإمام لا يطلب من ابنه أن يكون مثل الأخ، بل أن يكون عبداً لأخيه في خدمته. وهذه الصورة المبالغ فيها ليست مجرد تعبير بلاغي، بل أداة إفهامية تهدف إلى ترسيخ سلوك التواضع والخدمة. واللغة هنا تحوّل التوجيه الأخلاقي إلى صورة حسية يسهل تذكرها وتطبيقها. ويحذر الإمام أيضاً من سوء الإفهام وهو تصحيح للمسار يهدف إلى ضبط السلوك ومنع المخاطب من الانحراف. والإمام لا يطلب من ابنه أن يكون طيباً مع الجميع، بل أن يكون حكيماً في توجيه الطيبة. واللغة هنا أداة إفهامية تحمل بعداً أخلاقياً-عملياً، حيث يتحول الخطاب من الإطلاق إلى التقييد، ومن العموم إلى الخصوص. وبهذا تتحقق الوظيفة الإفهامية في أقصى صورها، حيث يصبح الخطاب أداة لتشكيل السلوك وتقويمه في ضوء معايير دقيقة.

الخاتمة

تؤكد نتائج الدراسة أن الوظائف اللغوية الست لا تظهر في رسائل الإمام علي (ع) بشكل منعزل أو منفرد، بل تتداخل وتتكامل بدرجات متفاوتة داخل النص الواحد. فالحديث عن وظيفة مهيمنة في مقطع معين لا يعني غياب الوظائف الأخرى، بل يعني تصدرها للمشهد الخطابي في ذلك المقطع، بينما تبقى الأخريات ثانوية أو خلفية. وقد تجلى هذا التكامل بوضوح في الرسالة إلى الحسن، حيث تتعانق الوظيفة التعبيرية مع الشعرية في افتتاحية الرسالة، ثم تتحول إلى الوظيفة المرجعية في الإخبار عن العلاقة الأبوية. وفي الرسالة إلى مالك الأشتر، تتداخل الوظيفة الإفهامية مع الشعرية في تعداد الصفات، ثم تتحول إلى الوظيفة الانتباهية في الافتتاحية.

أما فيما يخص السؤال الأول للبحث، فقد كشفت الدراسة عن علاقة وثيقة وتبادلية بين توزيع الوظائف والسياقات. فالإمام لا يوزع الوظائف عشوائياً، بل يكيف خطابه وفق مقام المخاطب وخصائصه. فحين يخاطب والياً كمالك الأشتر، تهيمن الوظيفة الإفهامية والمرجعية، لأن المقام مقام توجيه سياسي وإداري، ويحتاج الوالي إلى أوامر واضحة وحجج مقنعة. وحين يخاطب ابنه الحسن (ع)، تهيمن الوظيفة التعبيرية والشعرية، لأن المقام مقام وصية تربوية ووجدانية، ويحتاج الابن إلى عاطفة أبوية وحكمة فنية. وحين يخاطب خصماً كمعاوية، تهيمن الوظيفة الإفهامية والانتباهية، لأن المقام مقام احتجاج سياسي وإبطال دعوى. وحين يخاطب عاملاً كعثمان بن حنيف، تهيمن الوظيفة التعبيرية والميتالسانية، لأن المقام مقام عتاب وتقويم. وهذا التباين في التوزيع يعكس وعي الإمام بخصائص كل مخاطب وقناعاته واهتماماته، ويؤكد أن الخطاب العلوي خطاب مقامي بامتياز، يتشكل وفق مقتضيات الحال والمقام.

وفيما يخص السؤال الثاني للبحث، أظهرت الدراسة أن هذا التوزيع يسهم في بناء الرسائل على أربعة مستويات متداخلة. فعلى المستوى الجمالي، حين تهيمن الوظيفة الشعرية، يتحول النص إلى قطعة أدبية مستقلة قائمة على السجع والتوازي. وعلى المستوى الانفعالي، حين تهيمن الوظيفة التعبيرية، يكشف النص عن الحالة النفسية للمتكلم ويشرك المتلقي عاطفياً. وعلى المستوى التربوي، حين تهيمن الوظيفة الإفهامية والميتالسانية، يتحول النص إلى أداة لتغيير القناعات وبناء المفاهيم. وعلى المستوى السياسي، حين تهيمن الوظيفة الإفهامية والانتباهية، يتحول النص إلى أداة للإقناع وإبطال دعوى الخصم. وهكذا يتفاعل التوزيع التبايني للوظائف مع السياقات الاجتماعية والثقافية لإنتاج دلالات جديدة، ويجعل من الرسائل نصاً متعدد الأبعاد: جمالياً وانفعالياً وتربوياً وسياسياً في آن واحد.

قائمة المصادر والمراجع

نهج البلاغة

الخوئي، حبيب الله الهاشمي، (١٤٠٠هـ). منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق إبراهيم الميانجي، طهران: المكتبة الإسلامية.

جاكبسون، رومان، (١٩٨٨). قضايا الشعرية، ترجمة محمد الوالي ومبارك حنون، المغرب: الدار البيضاء.

الزياتي، عزالدين، (٢٠٠٨). التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي، الرباط: دار القلم للطباعة والنشر.

زيان، ليلي، (٢٠١٦). «عملية التواصل اللغوي عند رومان جاكوبسن»، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، العدد١، صص ٨٩-١٠٢.

الشهري، عبدالهادي بن ظافر، (٢٠٠٤). إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ط١١، بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة.

الطبال بركه، فاطمه، (١٩٩٣). النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسن؛ دراسة نصوص، بيروت: الموسسة العلمية للدراسات والنشر.

الغزالي، عبدالقادر، (٢٠٠٣). اللسانيات ونظرية التواصل، سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

غيرو، بيار، (١٩٨٤). السيمياء، ترجمة أنطوان أبي زيد، بيروت: منشورات عويدات.

مبارك، محمدرضا، (١٩٩٩). استقبال النص عند العرب، بيروت: الموسسة العربية للدراسات والنشر.

المسدي، عبد السلام، (١٩٨٢). الأسلوبية والأسلوب، القاهرة: الدار العربية للكتاب.

منقور، عبد الجليل، (٢٠٠١). علم الدلالة: أصولة ومباحثه في التراث العربي، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

مومن، أحمد، (٢٠٠٥). اللسانيات النشأة والتطور، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

نهر، هادي، (٢٠٠٣). الكفايات التواصلية والاتصالية دراسات في اللغة والإعلام، عمان: دار الفكر.

شفيعي كدكني، محمدرضا، (١٣٦٨). موسيقي شعر، تهران: نشر آگاه.

صفوي، كوروش، (١٣٩٤). از زبان‌شناسي به ادبيات، چاپ ٥، تهران: انتشارات سوره مهر.

فالر، راجر، (١٣٦٩). زبان‌شناسي و نقد ادبي، ترجمه مريم خوزان وحسين پاينده، تهران: نشر ني.

مكارم شيرازي، ناصر، (١٣٨٤). پيام امام اميرالمؤمنين عليه‌السلام: شرح تازه و جامعي بر نهج‌البلاغه، المجلد٩، طهران: دار الكتب الإسلامية.